

الكَيِّفُ وَالنُّبُوَّةُ وَحَاجَةُ الْبَشَرِ إِلَيْهِمَا

لِلأستاذ: محمد بن حماد الصقلي

أولى التعبد :

تعبد الإنسان منذ عصوره الأولى ، وتدين في حياته البدائية ، ويتخذ المؤرخون من مظاهر الطبيعة العجيبة النافعة ، وتقلبات الكون الغريبة المخيفة أساسا لنشوء الديانة ، وسببا في انتشار العبادة ، فهم يرون أن الرعود القاصفة ، والبروق الخاطفة ، وقطع النيازك التي تنزل أحيانا من السماء والسيول الجارفة التي تنذر بالفناء ، كلها أشياء أفرغت الإنسان في تلك العهود وأشعرته بأنها قوة قاهرة خارقة في هذا الوجود ، لم يتمكن من معرفتها ولم يستطع أن يأخذ أية صورة عن واقع الأمر فيها ، فنتج عن ذلك أن أحاطها بهالة من التقديس والاحترام ، وبواها من نفسه مقام الأكابر والأكرام ، واعتقد أنها هي مصدر نفعه ، وسبب ضره ، فعبدها ليستجلب منها الخيرات ، ولتدفع عنه المضرات ، ومن أجل ذلك خضع الإنسان البدائي للكواكب ، واه الأصنام وغيرها ، هذه هي مرحلة تعبد الإنسان الأولى ، وهي كما يزعم المؤرخون مرحلة خوف ورجاء ، كان الإنسان فيها يخاف من كل شيء ، ويرجو النفع من كل شيء ، ولا يتقي شره ويأمل نفعه إلا بالخضوع له ، وعبادته ، فالديانة في هذه المرحلة كانت بدائية كما أن شؤون حياة الإنسان فيها كانت أيضا بدائية ، فمن أجل الخوف والرجاء تكاثرت المعبودات حتى صعب استقصاؤها ، وتقدر

تعدادها ، ثم تخطى مرحلة الدنو هذه الى مرحلة اسمى ، فكما ترقى في مناهج حياته ، وفي العلوم والصناعات ترقى ايضا ادراكه الديني ، فاجتاز مرحلة تعدد الآلهة من غير تمييز الى مرحلة تعددها مع التمييز والترجيح ، بأن أعطى رئاسة الآلهة لواحد منها ، تتوفر له عوامل التصدير والزعامة ، ثم خرج الانسان من مرحلتي تعدد الآلهة الى مرحلة عبادة الاله الواحد ، وقد تأثر بهذه النظرية كثير من الباحثين المسلمين نذكر من بينهم العميد الركن طه أنبأشمي في كتابه : « تاريخ الأديان وفلسفتها » ، ومما جاء فيه قوله : « وفكرة الدين مندمجة بالانسان منذ أول نشأته ، وقد دل التنقيب على ان البشر حتى في ادوار ما قبل التاريخ ، كان متأثرا بفكرة الدين » الى ان قال : « ومن الجلي ان فكرة الدين هذه كانت ساذجة تنصف بالخوف والرجاء ، الخوف من مظاهر الطبيعة المخيفة ، والرجاء من مظاهرها الخيرة » .

ومن نصوصه في هذا المجال قوله : « واذا كان الدين ظاهرة وحاجة اجتماعية رافقت البشر منذ أول نشأته بحيث لم تخل جمعية بشرية من دين يلائم طباعها ويوافق بيئتها ، فمن الطبيعي ان يتجلى للباحث المقارن من دراسة الآثار التي اكتشفها العلماء في الاطلال الدوارس التي لا يزال بعضها يتلبس حضارة الدور الحجري ، أن فكرة الدين تطورت من حالة بدائية ساذجة الى حالة عالية متكاملة ، وان لرقى الفكر البشري نصيبا كبيرا من هذا التكامل » . ثم ساق قوله تعالى : « وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والارض ، وليكون من الموقنين ، فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربي ، فلما افل قال لا احب الاقلين ، فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربي ، فلما افل قال لئن لم يهدهني ربي لآكونن من القوم الضالين ، فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا اكبر ، فلما افلت قال يا قوم اني بريء مما تشركون ، اني وجهت وجهي للذي فطر السموات والارض حنيفا وما انا من المشركين » ، وادعى ان هذه الآيات هي اشارة رمزية للتدرج من الوثنية الى التوحيد ، وهو ادعاء باطل لان التدرج يحتاج الى حقبة زمانية متباعدة ، وتطورات في احوال الحياة البشرية ، والآيات انما هي استدلال بالاثار على المؤثر وبالمصنوعات على وجود صانعها .

وبعد هذا شرح كيفية التطور من الوثنية الى التوحيد فقال : (هكذا تطور التفكير الديني لدى الانسان الاول حتى اعتقد بقوة الروح ، والله

مظاهر الطبيعة مما شاقه واستراح اليه كالشمس والنار والربيع ومما خافه واضطرب منه كالظلام والعاصفة وأرعد والصاعقة ، وهكذا اتخذ من هذه المظاهر آلهة خير و آلهة شر ، ثم أمسى وثنيا من في اعتقاده يعبد الاحجار والاشجار ولما تدرج في سلم الرقي وسما ادراكه ، وفطن الى أنه لا يجوز ان يكون للاحجار والاشجار الحول والطول أعرض عنها ، وعظيم الروح التي توهمها فيها ، وزاد من شأنها ، ونسب اليها قدرة التصرف في الكائنات خيرا وشرأ ، ثم صار مشتركا يعبد آلهة متعددة يتقرب اليها بالصلوات ، ويتقي شرها بالاضاحي والنذور ، بيد أن البشر لم يستمر على هذا الاعتقاد طويلا ، بل لاحظ النظام الباهر الذي تسير عليه الاكوان ، وأخذ يتساءل عما اذا كان يجوز لهذه الآلهة المتعددة ان تتصرف في الكون بذلك النظام دون ان تكون خاضعة الى سلطة اعلى منها مقاما وأعظم شأنًا ، وكان يرى في نظام الحكم الذي يخضع اليه مثلا لذلك ، وهكذا وضع الها أجل أعلاه فوق آلهته المتعددين تعمل بأوامره ، وتطور هذا الاعتقاد عند البعض فرأى انه من الضلال ان يحتاج ذلك الاله الى مساعدة الآلهة الاخرى فأجله ونزعه عن الشركاء واعتقد باله واحد أحد .

ومن بين من تأثر بهذه النظرية أيضا ، الاستاذ عباس محمود العقاد فقد جاء في كتابه « الله » عند شرحه لاصل العقيدة قوله : « ترقى الانسان في العقائد كما ترقى في العلوم والصناعات ، فكانت عقائده الاولى مساوية لحياته الاولى ، وكذلك كانت علومه وصناعاته ، فليست أوائل العلم والصناعة بأرقى من أوائل الاديان والعبادات وليست عناصر الحقيقة في الواحدة منها بأوفر من عناصر الحقيقة في الاخرى) ، وزاد فقال : (وينبغي ان تكون محاولات الانسان في سبيل الدين أشق وأطول من محاولات في سبيل العلوم والصناعات ، لان حقيقة الكون الكبرى أشق مطلبًا ، وأطول طريقًا من حقيقة هذه الاشياء المتفرقة ، التي يعالجها العلم تارة والصناعة تارة اخرى) ، وفي موضع آخر من بحثه في هذا الموضوع قال : (يعرف علماء المقارنة بين الاديان ثلاثة أطوار عامة مرت بها الامم البدائية في اعتقادها بالآلهة والارباب ، وهي طور التعدد ، و طور التمييز والترجيح ، و طور الوحدةانية ، ثم أخذ يبسط القول عن كل واحد من هذه الأطوار .

من هذه النصوص ، ومن نصوص غيرها كثيرة يتأكد ان نظرية تعدد الآلهة الناشيء عن الخوف والرجاء ، قد غزت ميادين البحث عند المفكرين ،

وغمرت مجالات النظر لدى المستنئجين فعاادت عندهم حقيقة لا تقبل التردد ، وأمر ثابتا لا مجال فيه للتجدد ، ثم تشبع بها الفرييون والشرقيون على السواء ، واقتنع بجذواها المسلمون وغير المسلمون في جميع الانحاء ، ومعظم هؤلاء ذهبوا الى أن صورة التدين الاولى ، كانت تطبعها الخرافات والاساطير ، فهي وحدها نقطة ابتداء لتدين الانسان ، وبقدر ما كانت تجاربه تتزايد ، ومعارفه تتسع ، وتأملاته تنمى ، كان تفكيره الديني يترقى مرحلة بعد مرحلة الى أن وصل على مر الاجيال الى عقيدة التوحيد التي هي منتهى الكمال ، في كل من تدينه ، ومقومات تحضره ، فعقيدة التوحيد على هذا حديثة جدا ، فهي نهاية المطاف ، وهي تمثل الدور الراقي في تفكير الانسان ، وفي عقيدته الحققة ، اذ لم يصل الى هذا الطور الا بعد أن أوغل في فاسد العقائد ، وأبله الخرافات ، وأفحش الوثنيات ، ولسنا ننكر أن بازاء هذه النظرية ، التي لا تتوافق مع الاعتقاد الديني نظرية اخرى تزعمها المدققون من المهتمين بتاريخ الاديان ، هؤلاء يذهبون الى أن أفضل الاديان التي ظهرت على وجه الارض هو دين التوحيد القائم على أن الكائنات كلها خلقها خالق واحد وأوجدها اله غني عن الشريك ، وعن المعين ، أما ما عرفته الإنسانية من عهود الوثنيات وعصور الخرافات ، وما ساد عندها من فاسد الاعتقادات فتغليله عند هؤلاء : أنه كان بمنزلة الامراض الطارئة والعلل العابرة ، أضرت الى حد ما بالتدين البشري ، وبالفطرة التي فطر الله الناس عليها ، فعقيدة تعدد الآلهة عرضت للانسان على هذا بمقتضى مؤثرات خارجة عن الطبيعة البشرية ، عرفها الانسان في اطوار من التخلف ، وفترات من الجزر الحضاري ، ونسجل بارتياح أن اصحاب هذا المذهب أوصلهم البحث الى أن الدين فطري في لانسان ، وأن العقيدة الحققة هي الايمان بالاله الواحد ، الذي خلق الاكوان كلها ودبر شؤونها وأستحق وحده العبادة دون سواه ، ومبعث ارتياحنا أنهم بهذا الاستنتاج ساروا من هذا الجانب في ركاب الاسلام ، مع افتراض أنهم لم يطلعوا وهم يبحثون على عقيدة التوحيد فيه ، وفي الاديان السماوية التي سبقته ، وهو ما نستبعده ، فمبدأ الاسلام الاساسي ومبدأ غيره من الاديان السماوية قبل أن تحرف أن عقيدة الاله الواحد أمر فطري في الانسان ، قال تعالى : « فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ، ولكن اكثر الناس لا يعلمون » . أخرج ابن مردويه في تفسير هذه الآية عن حماد ابن عمر الصغار ، قال : سألت قتادة عن قوله تعالى :

« فطرة الله التي فطر الناس عليها » فقال : حدثني أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فطرة الله التي فطر الناس عليها دين الله تعالى » ، روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من مولود الا ويولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء ، هل تحسون فيها من جذعاء » ، وروى الامام مسلم عن عياض المجاشعي عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه عز وجل قال : « خلقت عبادي حنفاء مسلمين ، فاجتالهم الشياطين ، فحرمت عليهم ما أحللت لهم ، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا » ، وروى الامام الترمذي عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كل مولود يولد من ولد كافر أو مسلم يولد على فطرة الاسلام ، ولكن الشياطين آتتهم فاجتالتهم عن دينهم فهودتهم ونصرتهم ، ومجستهم ، وأمرتهم أن يشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا » ، فالفطرة المذكورة في الآية وفي الاحاديث هي الفريضة الانسانية المهيأة تهئية ذاتية ، والمستعدة استعدادات أصلية ، لادراك حقائق الاشياء في عالم المحسوسات ، وعالم ما وراء المحسوسات وهي غير القوة الطبيعية التي للانسان ، وبمقتضى الفطرة يكون الانسان المجرد عن العوامل الصارفة مقرا بالربوبية معترفا بوحداية الله ، وذلك الاقرار هو الوارد في الآية الكريمة : « الست بربكم ، قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين » ، فهذه الآية الكريمة أكدت أن عقيدة التوحيد هي الاساس في تعبد الانسان ، ولم يتخل عنها الا بحكم تأثيرات الانحراف ، التي حالت بينه وبين الاعتقاد السليم .

ان الذين ذهبوا الى أن التدين اصله الاصيل هو التوحيد ، هم وأن ساروا في ركاب الاسلام اتفقوا مع أصحاب المذهب الاول في أمرين : الاول : تحديد الصورة الواقعية لديانة الانسان الاولى ، وعقيدته البدائية ، فجميعهم يصورون الديانة اذ ذاك بصورة يشوبها التفكك ، ويطبعون العقيدة بطابع يتجلى فيه التخلف .

الثاني : منهج الدراسة لاول تعبد باشرته البشرية ، فرغم تباين المذهبيين فان أصحابها ينطلقون من المعطيات التي تتجلى لهم من اقتناعهم بأن أول المتعبدين كانوا شعوبا بالغة التخلف ، وأما لا تتوفر لها أدنى مؤهلات التحضر ، ولا يحتفظون حتى بأبسط مناهج التفكير الديني ،

فحكموا كلهم حكما يقينيا على الانسان بانه في اول عهده بالحياة كان في بلاهة ، وانحطاط فكر وفي تفكك ووحشية ، لم يستطع بسبب ذلك ان يخلف اية معلمة يمكن ان تدل عليه ، وترشد الى اى أثر من آثار وجوده التمدني ، لذلك ألفوا من اهتمامهم دراسة ما قد يكون وجد اذذاك من شعوب وأمم ، فهي على هذا الحكم شعوب وأمم غيبت عن البحث التاريخي لكونها لا يناسبها الا ان تكون مندثرة وغائبة ، ونحن نرى ان اجماع هؤلاء واولئك ينقصه المستند العلمي ايتين ، فليس هناك من الدواعي ما يوصل الى تصحيح المذهبين فأحرى اعتمادهما ، بل ان الدكتور محمد بيسان ، صرح بتخطئة أصحاب المذهبين ، ووجه الخطأ بالنسبة للامر الاول ، ان عصور حياة الانسان البدائية التي كانت وراء ما أطلقوا عليه (العصر الحجري الاول) هي عصور ضاربة في القدم ، عجز المؤرخون وخاصة منهم المهتمين بتاريخ الاديان ، عن ان يتخطوا عتبتها ، فأحرى ان يجولوا في مجاهلها ، فهي باعترافهم عصور خارجة عن سلطان العلم بعيدة عن متناوله ، وما كان خارجا عن سلطان العلم لا يكون الحكم عليه الا رجما بالغيب ، ولا يأتي التقرير عنه الا محفوفا بالشك والريب ، تنعدم فيه أهم مقومات الثقة فيه والاعتداد به ، وهي الصدق واليقين ، فتقديمهم للصورة على انها واقعية عن الديانة في تلك العصور ، هو تنزيل للتخمين منزلة الواقع المشاهد واظهار للشك في مظهر اليقين في المعتقد .

ووجه خطأ المذهبين في الامر الثاني : ان معطيات منهجهم قائمة على اقتراض غير مقبول فان مقتضاه ان الثابت في اذهان الباحثين ، وعلم الدارسين حول الامم المتخلفة عن ركب الحضارة هو ان تلك الامم انما وجدت متخلفة منذ بداية تاريخها ، واول وجودها واستمرت على حالها من التخلف ومظهرها من الانحطاط حتى اضمحلت ، دون ان تمر بأطوار من التقلب ، وتعرض لموجات من المد والجزر الحضاري التي يعقبها دائما انحراف في العقائد وبلبل في الافكار ، وتخلف في الدين ، وهذا افتراض لا دليل عليه ، بل لم يصرح به اى باحث بما في ذلك أصحاب المذهبين انفسهم ، فالثابت عند المؤرخين والباحثين ان عهود التخلف ، وعصور الانحطاط عاشها البشر بعد انقضاء حضارة سابقة ، وانصراف مدنية سالفة ، وعلى انقضاء عهود التخلف شيدت حضارتنا القائمة ، وبنيت مدينتنا الحالية والامر كذلك بالنسبة لمختلف المدينيات والحضارات . وبالنسبة لعهود التخلف والانحطاط ، فكل تخلف يأتي بعد الازدهار ، وكل

ازدهار يسبقه التخلف ، فالحكم اليقيني ببلاهة الفكر الديني في تلك العهود ، وبقائه على وضعه حتى اضمحل هو حكم غير مدعم بالحجج ولا مؤيد بالبيانات ، فلم يبق لنا لتقصي الحقائق ، الا ان نواجه هذه النظريات المنتقدة بتوجيهات الاسلام ، فلئن كان المؤرخون وغيرهم يرون ان الانسان في اول عهده بالحياة لم يكن يهدف الا لجمع القوت ، فهو عالة على الطبيعة ، أشبه شيء بالوحوش افئাকে ، كان مجردا عن التفكير الذاتي ، بعيدا عن السلوك الخلقي ، منسلخا عن الشعور الذوقي في جل من التقيد بالنظام لكنه بفعل مرور الزمن ، وتكرار التجربة أخذ يتطور تدريجيا ، ويتحضر شيئا فشيئا ، فان الاسلام يوجه الباحثين الى نظرة أكثر عمقا وأوسع مجالا ، فاقراءن يذكر ان الارض وجدت ممهدة للانسان زاخرة بالنبات والطير ، ومختلف أنواع الحيوان ، فهو قادر على ان ينتفع بخيراتها يستطيع العيش عليها « والأرض بعد ذلك دحاها أخرج منها ماءها ومرعاها، والجبال أرساها متاعا لكم ولانعامكم » ويوضح كذلك ان اهليية الانسان للثقافة والعلم متركزة فيه منذ بدايته في الوجود ، ولا ادل على أنه يرشد الى توفرها فيه من هذه الآية الكريمة وهي قوله سبحانه : « وعلم آدم الاسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين قالوا سبحانه لا علم لنا الا ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم ، قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال : ألم اقل لكم اني اعلم غيب السموات والارض واعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون » ، بل ان القرءان تجاوز ذلك ، الى ان جعل الانسان الاول خاضعا لقواعد القانون توجه اليه الأوامر والنواهي ، وينال جزاء طاعته بالثواب ، كما ينال جزاء مخالفته بالعقاب ، قال تعالى : « وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة ، وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ، فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه ، وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ، ولكم في الارض مستقر ومتاع الى حين ، فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه انه هو التواب الرحيم » ، وما الامر والنهي مع مراعاة الجزاء الا ثبوت لحقيقة القانون ، قال اسطن : (القانون هو خطاب متضمن أمرا او نهيا صادر عن سلطة عليا ومصحوب بجزاء ، فكم من أوامر ونواهي وجهت الى الانسان منذ عهوده الغابرة ، وعصوره الاولى من ذلك نهيه عن اقتراف جريمة القتل) . والقرءان يرشد الى ذلك ، فمن بين الآيات قوله تعالى : « واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق اذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما ولم

يتقبل من الآخر ، قال لاقتلنك ، قال انما يتقبل الله من المتقين لان بسطت الي يدك لتقتلني ما انا بباسط يدي اليك لاقتلك ، اني اخاف الله رب العالمين ، اني اريد ان تبوء باثمي واثمك فتكون من أصحاب النار ، وذلك جزاء الظالمين » . فكم من آية دلت على ان الله أحاط الانسان بأعظم عناية ، وأكبر رعاية ، حيث بعث اليه المرسلين ليسلكوا به منهج الحق في عبادة الله وحده ، ولتبليغه الاحكام التي تجعله في مستوى ما تحمله من امانة ، فالانسان في نظر اقرءان رفيع القدر منذ نشأته سليم التفكير حتى في اول عهده ، مفطور على الدين ، مجبول على البحث والاستنتاج ، ولسنا بصدد تتبع الأدلة بالنسبة لكل من نظرية التاريخ وتوجيه الدين ، ويكفي ان نؤكد ان الشأن في استنتاجات المؤرخين ان تكون افتراضية أكثر من ان تكون واقعية ، او مستندة على نظريات لا يبعد ان تصير مفحومة بالمعلومات التي قد تنتج عن بحث الانسان المتواصل على ان ما هو مدون عند المؤرخين قد يكون مبنيا على قاعدة النشوء والارتقاء ، وهي قاعدة أخذت تضعف حتى عند أصحابها ، وما دام الامر قائما على الافتراض ، فلماذا لا نفترض ان يكون انشبه المزعوم بين الانسان وبين القرد ، هو أثرا باقيا من آثار المسخ الذي كان قديما بمقتضى قوله سبحانه : « كونوا قردة خاسئين » ثم رفع بمقتضى قوله سبحانه : « وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستفرون » ؟ على ان المؤرخين كثيرا ما كانوا يستدلون على توحش الانسان القديم بما هو موجود من الجماعات المتوحشة في كل من الاواسط الافريقية والاسطورية والأمريكية ، انهم يذكرون ان تلك الجماعات هي بقايا من الجماعات الانسانية القديمة ، ومعنى استنتاجهم هذا ، ان الشعوب المتأخرة في عصرنا الحاضر - وما أكثرها - لم يسبق لها ان عرفت الحضارة ولم يتقدم لها ان استطلت في ماضيها بظلال المدنية ، فمنذ وجودها وهي على هذا الحال من التأخر ، وهذا امر ساقط بالبداهة ومردود بالضرورة .

ان التوجيه الديني بقي في مستواه الرفيع ومركزه القوي ، ولم تستطع أية حقيقة علمية ان تبطل مفعوله ، او تنقص من صلاحيته ، وما ذلك الا لكون حقائقه تتصل الى حد بعيد بالاصلاح الجذري للانسان ، والتنظيم الكامل للحياة .

وقد أناط الله تبليغ الدين بمن اصطفاهم من الانبياء ، واختارهم من الرسل الاصفياء فناسب ان نتكلم عن النبوة .

3 - النبوة

النبوة من السمعيات ، والسمعيات قسمان :

1) الامور التي يتوقف عليها السمع كالنبوة ، فان ما اخبر به الانبياء من المغيبات مسموعة بواسطة تبليغهم عن الله ، فكان سماع تلك المغيبات متوقفا على نبوتهم .

2) الامور التي تتوقف هي على السمع كالمعاد واسباب السعادة والشقاوة من الايمان والطاعة والكفر والمعصية فانها جميعها متوقفة على سماعها من النبي الذي اخبر بها عن الله تعالى ، وللنبي معنيان : معنى لغوي ومعنى اصطلاحي . أما معناه اللغوي فيختلف باختلاف المصدر المأخوذ منه ، فان اعتبر اخذه من النبأ كان معناه الخبر ، وهو مهموز مخفف ، ومناسبته للعرف جاء من كونه مخبرا عن الله تعالى . وان اعتبر اخذه من النبوة كان معناه المرتفع ، ومناسبته للعرف جاءت من كون النبي عالي الشأن ساطع البرهان ، وان اعتبر اخذه من النبي كان معناه الوصل ، ومناسبته للعرف جاءت من جهة كون النبي وسيلة الى الله تعالى .

وأما المعنى الاصطلاحي فقد قال الامام العزدي في موافقه : (من قال له الله أرسلتك او بلفهم عني ونحوه من الالفاظ) ، وحذف في التعريف معمول أرسلتك ليعم من كانت نبوته خاصة ، وذلك في حق الانبياء قبل سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، او من كانت دعوته عامة ، وذلك في حق خاتم النبيين محمد (ص) فيكون التقدير ، من قال له الله أرسلتك الى قوم كذا . ومثاله قول الله تعالى : « والى ثمود اخاهم صالحا » . او الى الناس عامة ومثاله قوله عز وجل : « وأرسلناك للناس رسولا » .

وعوموم بعثته (ص) ، توجد في طبيعة ما يحاول أعداء المسلمين من اهل الكتاب وغيرهم أن يضللوا الناس عنه او على الاقل أن يشككوه ، بل فيهم من يسوق آيات قرآنية وهو يتعمد وضعها في غير موضعها ، وحملها على ما لا يتفق مع حقيقتها ، وذلك كان يستدلوا بعدم عمومية رسالته (ص) بقوله تعالى : « انا انزلناه قرآنا عربيا » ، وقوله : « وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه » ، وقوله : « هو الذي بعث في الاميين رسولا منهم » ،

وقوله : « لتنذر قوما ما اتاهم من نذير من قبلك » ، وقوله : « وانذر عشيرتک الاقربين » .

وقد تكفل الامام القرافي بالتشنيع على هؤلاء الذين حرفوا الكلم عن مواضعه ، ووضعوا الشيء في غير موضعه من وجوه :

(1) وصف القراءان بكونه عريبا بالنسبة للآية الاولى ببيان كونه سبحانه لا يرسل الرسول الا بلسان قومه بالنسبة للآية الثانية ، لا يدل على خصوص دعوته (ص) بل الحكمة أن الله تعالى انما يبعث رسله بالسنة قومهم ليكون ذلك ابلغ في الفهم عنهم ومنهم ، وهو ايضا يكون اقرب لفهمهم عنهم جميع مقاصدهم في الموافقة والمخالفة وازاحة الاعدار والعلل والاجوبة عن الشبهات المعارضة ، وايضاح البراهين القاطعة فان مقصود الرسالة في اول وهلة انما هو البيان والارشاد ، وهو مع اتحاد اللفظة اقرب .

فاذا تقرررت نبوة النبي في قومه قامت الحجة على غيرهم ، فان اقارب الانسان بمخالطيه المطلعين على حاله والعارفين بوجه الطعن عليه اكثر من غيرهم ، اذا سلموا ووافقوا فغيرهم أولى أن يسلم ويوافق ، تلك هي الحكمة في ارسال الرسول بلسان قومه من قومه ، لا أن المقصود لا يتعدى برسالته لغير قومه . وفرق بين قول الله تعالى : « وما ارسلنا من رسول الا بلسان قومه » وبين قوله : « وما ارسلنا من رسول الا لقومه » ، فالقول الثاني هو المفيد لاختصاص الرسالة بهم ، لا الاول ، بل لا فرق بين قوله : (وما ارسلنا من رسول الا لقومه) وبين قوله : (وما ارسلنا من رسول الا مكلفا بهداية قومه) ، فكما أن الثاني لا اشعار له بأنه لم يكلف بهداية غيرهم ، فكذلك الاول ، فمن لم يكن له معرفة بدلالة الالفاظ ومواقع المخاطبات سوى بين المختلفات ، وفرق بين المُتلفات .

(2) لو قارنا بين اللفظة التي نزل بها القراءان وهي العربية وبين اللفظة التي نزل بها التوراة وهي العبرية واللفظة التي نزل بها الانجيل وهي الرومية ، لوجدنا أن نفس الاعتراض يوجه الى التوراة والانجيل ، فالمسيحيون قاطبة ليست لهم دراية بالعبرية ، فهم لذلك بين امرين : اما الا يقولوا بالتوراة ، وهذا لا يتفق مع واقع امرهم لكونهم يقولون بكتسب

العهد القديم ، وخاصة منها الاسفار الخمسة : (سفر التكوين ، وسفر الخروج ، وسفر العدد ، وسفر اللاويين ، وسفر تثنية الاشتراع) . واما ان يقولوا بالتوراة ولا سبيل لهم الا ان يتعلموا اللغة العبرية . او يترجموا انى لغتهم تلك الاسفار العبرية . فكيف يعترضون على القرءان بما يطبقونه عمليا بالنسبة الى التوراة ، وما قلناه في التوراة بالنسبة للمسيحيين نقوله ايضا في الاناجيل بالنسبة للعبريين ، فهؤلاء وان كانوا اعداء للمسيح فهم يقولون بكتب العهد الجديد الشاملة للاناجيل الاربعة ، ورسائل بطرس ورسائل يوحنا ، ورؤيا يوحنا وغير ذلك .

3) تطبيقه العملي في تبليغ رسالته يؤكد انه (ص) ، مبعوث الى الناس اجمعين ، ذلك انه قاتل اليهود وبعث الى الروم يندرهم ، وكتابه عليه السلام بقي محفوظا في بلادهم ازمانا عديدة يفتخرون به . كما انه راسل المقوقس ملك القبط بمصر ، وكسرى ملك الفرس بفارس ، ومن المسلم به ان رسل الله خاصة خلقه وخيرة عبادہ معصومون من الزلزل مبراون من الخطأ ، فلا يعقل ان يكون مبعوثا الى خصوص قومه ثم يخالف ويعمم دعوته ، فما كان انذاره لغير العرب الا تنفيذا لاوامر الله له . ولم ينكر اولئك الذين تلقوا رسائله التي بعثها لهم ، كما ان قومه لم ينكروا ذلك ، وكل هذا يؤكد عموم بعثته ، خصوصا وان من جملة ما نزل عليه (ص) قوله تعالى : (وما ارسلناك الا كافة للناس) فالآية تصريح واضح بالتعميم لا تترك أي التباس ، ولا تبقى آية شبهة لمن يدعي التخصيص ، واذن ، فلا يخلو . اما ان يكون المنتقدون لا يعتقدون اصل الرسالة لا لقومه ولا لغيره ، فمن حقهم ان يطالبوا المسلمين بما يقتضي صدق اعتقادهم في شمول الدعوة المحمدية ووجودها ، وليس من حقهم ان يقولوا مثلا ، اوضحوا لنا دعوى كتابكم ، لان مثل هذا القول يستلزم الاعتراف بالكتاب اصلا ، لا على خصوص انه خطاب للعرب .

واما ان يكون المنتقدون يعتقدون اصل الرسالة لكنها مخصوصة ، فيلزمهم بمقتضى ما بيناه ان يقولوا بالتعميم ، والآية الثالثة التي اوردنا : (هو الذي بعث في الاميين رسولا منهم) لا تقتضي انه لم يبعثه سبحانه لغير العرب ، فمن المعروف ان الملك العظيم اذا قال : بعثت انى موضع كذا رسولا من اهله ، لا يدل قوله على انه ليس بيده رسالة اخرى لغير قومه ، كما انه لا يدل قوله على انه لا يأمر قوما آخرين بغير تلك الرسالة ،

فلا حجة لمن يريد أن يضل الناس بالآية الكريمة . كذلك لا حجة لهم في الآية الرابعة التي أوردنا وهي قوله سبحانه : (لتندر قوما ما أنذر آبائهم من قبل) لأنها لا تفيد أنه (ص) لا ينذر غيرهم ، بل لما كان الذين يتلقون الوحي أولاهم العرب كان التنبيه بمنة الله على رسوله بهداية قومه أولى من غيرهم . فنظير الآية أن يقول الشخص لغيره : بعثتك لتشتري ثوبا ، فقوله هذا لا ينافي أن يكون الشخص أمر غيره بشراء الطعام مثلا ، وإنما خصص الثوب بالذكر لمعنى اقتضاه ، وسكت عن الطعام لأن المقصد لا يتعلق به ، والعقلاء دائما يتكلمون فيما يوجد سببه ويسكتون عما لم يتعين سببه ، وأن كان كل من المذكور والمسكوت حقا واقعا .

ونفس الامر حاصل بالنسبة للرسالة المحمدية ، فهي عامة ، ولما كان المقصود اظهار المنة على العرب خصوا بالذكر ، وهذا هو شأن الخطاب ابدا فلا معنى ان يفتر جاهل بأن ذكر شخص معين يقتضي نفي الحكم عن غيره . وعلى هذا قوله تعالى في الآية الخامسة التي أوردنا : « وأنذر عشيرتک الاقربين » فليس فيها دليل على أنه لا ينذر غيرهم .

فلو قال القائل لغيره : ادب ولدك ، لا يدل على ان القائل نفى التأديب عن الغلام بل الجملة تقتضي تأديب الولد أولا لان الغرض مخصوص به ، ولعله اذا فرغ من تنفيذ وصيته على الولد يقول له : وغلامك أيضا ادبه . وإنما كان البدء بالولد للاهتمام به .

ولا يخطر ببال عاقل ان يكون الكلام الثاني مناقضا للاول فقرأنه (ص) هم أولى الناس ببره عليه الصلاة والسلام واحسانه . فخصهم الله بالذكر كذلك ، لا لان غيرهم غير مراد كما اوضحنا في صورة الولد والغلام . فتحصل ان هذه الآيات جاءت بألفاظ لغة العرب فهم أعلم بها . واذا كان عليه السلام هو المتكلم بها ولم يفهم تخصيص الرسالة ، بل انذر غير العرب من الامم ، وأهل اللغة العربية لم يفهموا ذلك ، وكذا أعداء النبي من أهل زمانه لم يدعوا ذلك ولا فهموه ، ولو أنهم فهموه لاقاموا به الحجة عليه ، فما

فهمه الا المنتقدون الذين هم اجانب عن اللغة ، فلا ينطبق حينئذ عليهم
المثل القائل : (ساء فهماء فساء أجابة) .

واشار العضد في تعريفه بقوله : (ونحوه من الالفاظ) الى ما يؤدي
معنى ارسلتك ، كبعثتك وامرتك بتبليغ وغيرهما ، ومنه قوله تعالى :
(يا ايها الرسول بلغ ما انزل اليك من ربك) ولم يفرق في التعريف بين
لفظتي الرسول وانبي بل جعله شاملا لهما . والرسول فعول بمعنى
مفعول ، يجوز استعماله بلفظ واحد للمذكر والمؤنث والمثنى والجمع ،
وجوز التثنية والجمع ، فيجمع على رسل بضمتين واسكان السين لغة ،
قاله في المصباح ، وهو مشتق من الرسالة ، والرسالة عرفها السعد في
شرح النسفية قائلا هي : سفارة العبد بين الله وبين ذوي الالباب من
خليقه يزيج بها عاقلهم فيما قصرت عنه عقولهم من مصالح الدنيا والآخرة .
وكما عرفوا الرسالة عرفوا كذلك الرسول المشتق منها . قال السنوسي
في شرح الصغرى : (هو انسان بعثه الله الى عبيده وايمائه ليبلغهم عنه
احكامه التكليفية والوضعية وما يتبعها من وعد ووعد ونحوه ، وهل شرطه
ان يكون له كتاب جديد او شرع مخصوص او نسخ شرع من قبله او لا
يشترط فيه شيء من ذلك أقوال) .

وقوله في التعريف (بعثه الله) اى ابتداء او بعد الايحاء لمن قبله
بدليل انه تعالى نص على ان اسماعيل اوحى اليه بوقله : (واوحينا الى
ابراهيم واسماعيل) وعلى انه رسول بوقله : (واذكر في الكتاب اسماعيل انه
كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا) ، مع ان اولاد ابراهيم ومن جملتهم
اسماعيل كانوا على شريعة ابيهم ، وكذلك يقال فيما بعد موسى من انبياء
بني اسرائيل ، فانهم بعثوا لتجديد ما نسي من التوراة وبهذا يجاب عن
استشكال كثرة الرسل مع قلة الكتب والصحف المنزلة بالنسبة اليهم .

فلا تلازم بين تبليغ الشرع ووجود الكتاب لانه قد يكون التبليغ بلا
كتاب ، كما اذا اوحى الى نبي من بني اسرائيل بتبليغ التوراة ، ولم ينزل
عليه كتاب اصلا ، وكوشع بن نون واسماعيل فانهما امرا بتبليغ الاحكام ولا
كتاب لهما ، كما انه لا تلازم بين تبليغ الشرع ونسخ ما قبله لان التبليغ قد
يكون مع عدم نسخ شريعة من قبله ، ولا بين الكتاب والوحي بالشرع لوجود
الوحي من غير كتاب في حق من هو نبي فقط .

والتبليغ المشار إليه في التعريف هو تبليغ مخصوص . قال
البيضاوي عند قول الله تعالى : (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك)
المراد ما يتعلق به مصالح العباد وقصد اطلاعهم عليه ، لا تبليغ كل ما أنزل
فان من الأسرار الالهية ما يحرم افشاؤه .

وقوله في التعريف وقيل : وله كتاب او نسخ الخ . صاحب هذا
القول يشترط في الرسول بعد الامر بالتبليغ أحد أمرين : أما أن يكون له
كتاب او شريعة ناسخة ، وأولى إذا اجتمع الأمران . وأما إذا انتفيا كما
إذا أنزل على نبي من بني إسرائيل بتبليغ أحكام التوراة الذي أنزل على
موسى ولم ينزل عليه كتاب ولم تكن له شريعة ناسخة لشرع موسى فليس
برسول ، وهناك قول ثان يقول : لا بد للرسول أن يكون له كتاب وشريعة
معا ، إلا أنه لا يشترط فيها أن تكون ناسخة ولا يلزم من كونه له كتاب أن
تكون له شريعة لاحتمال أن يكون كله مواعظ .

وتعريف السنوسي ينطبق على تعريف العضد الذي يحتمل أن يشمل
كذلك تعريف النبي الذي هو انسان أوحى إليه بشرع مطلقا : فيكون أعم
من الرسول على القولين ، لانه شامل لما إذا أمر بالتبليغ او لم يؤمر به ،
قال الامير وعكس بعضهم قال لان الرسول يكون من الملائكة . وقيل :
النبي انسان أوحى إليه بشرع وأمر بتبليغه ، فيكون مساويا للرسول على
القول الاول في الرسول واعم منه على القول الثاني فيه لزيادة النبي بصدقه
على من ليس له كتاب ولا نسخ كيوشع بن نون واسماعيل .

وطريقة المشاركة تراد فهما ، قال الشيخ الامير : وعليه ظاهر قوله
تعالى : (وما أرسلنا قبلك من رسول ولا نبي) من حيث تعلق الارسال
بهما . وقيل : الرسول من أوحى إليه بواسطة الملك ، والنبي بالهام او
منام .

والملك خارج عن التعريفين لان المقصود تعريف الرسول في العرف
العام ، وهو الذي يظهر لعامة الخلق لكونه مبعوثا لارشادهم . والحكمة في
عدم ارساله كما في الجواهر الشعراني أن الارسال اختبار من الله تعالى ،
وهو انما يكون من بعضهم كما قال : (بشرا منا واحدا نتبعه) وقال تعالى :
(واو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون) وأيضا عامة

الخلق لا يناسبهم الروحاني المحض ، كما يشير اليه قوله تعالى : (قل لو كان في الارض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا) .

ولو أننا لم نحمل تعريف الرسول على العرف العام لعرفناه بما يشمل الملائكة لقوله تعالى (جاعل الملائكة رسلا) .

اما الجن فهو ايضا لا يكون نبيا . وقوله تعالى : (يا معشر الجن والانس اني بعث اليكم رسلا منكم) معناه : من مجموعكم او من احدكم ، فحذف المضاف كما حذف من قوله تعالى : (يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان) وانما يخرج من الملح دون العذب . وذهب الضحاك والكلبي وغيرهما الى ان الجن بعث اليهم رسول منهم تمسكا بمظاهر الآية . وقال مجاهد : الرسل من الجن ، رسول الرسل من الانس ، وهم النذر كالذين استمعوا القرآن فبلغوه قومهم ثم (ولوا الى قومهم منذرين) الآية . قال : فهذا الاعتبار قيل : رسل منكم ، خطابا للجن والانس .

واما الانثى فقد اختلف في نبوتها ، فمنهم من يرى نبوة بعضهم كمریم ، قال ابن السبكي : ويشهد بنبوتها ذكرها في سورة مريم مع الانبياء بمثل اللفظ الذي ذكروا به . قال : واختلف في نبوة غيرها ، كحواء وام موسى ، وآسية ، وسارة ، ولم يصح عندنا في ذلك شيء .

فالذكرة مشترطة في النبي على الرجاء ، وفي الرسول اتفاقا ولا شاهد لنبوة الانثى في قوله تعالى : (واذكر في الكتاب مريم) لانه لا يلزم من ذكرها بنفس اللفظ الذي ذكروا به نبوتها لانه ليس بصريح فيها ، والمطلوب من هذه المسألة القطع ، والذي صرح به في القرآن وصفها بالصديقة فقط . وكذلك لا شاهد في ارسال جبريل لها ، وقوله : (انما انا رسول ربك) الآية ، لا يستلزم المطلوب الذي هو نبوتها وان قال به الاشعري وابن وهب وغيرهما . ويؤيد رجحان عدم نبوتها ما ذكره ابن الهمام من ان امر النسوة مبني على التستر والقرار في البيوت ، وزاد الشيخ زن الدين قاسم ذاكرا ان مما يؤيد عدم نبوتها قوله تعالى : (وما ارسلنا من قبلك الا رجالا يوحى اليهم) ، ويقول علي رضي الله عنه : (لو كانت الخلافة تصلح لامراة لكانت عائشة رضي الله عنها تستحق الخلافة . اصف الى ذلك ان النساء لا يصلحن للامارة والسلطنة والقضاء

وهذه الاحكام من فروع النبوة والرسالة ، فكن لا يصلح
لاصل النبوة اولى) .

وسر تعدد الرسل والانبياء ان مصالح الناس تتفاوت بالازمنة ولهذا
تنسخ الاحكام . اما حكمة بعثتهم فقد بينها السعد فقال انه تعالى خلق
الجنة والنار واعد فيهما الثواب والعقاب وتفاصيل احوالهما . وطريق
الوصول الى الاولى والاحتراز من الثانية مما لا يستغل به العقل . وكذا
خلق الاجسام لنافعة والضارة ولم يجعل للعقول ولاحواس الاستقلال
بمعرفتها اى كالمذكى والميتة ، وكذا جمل من القضايا ممكنات لا طريق
للعقل الى الجزم باحد جانبيها ، وواجبات وممتنعات لا تظهر للعقل الا بعد
نظر دائم وبحث متواصل لو استقل الانسان به لتعطلت اكثر مصالحه .
فكان من فضل الله ورحمته ارسال الرسل لبيان ذلك كما قال : (وما
ارسلناك الا رحمة للعالمين) ومقتضى احكمة التي هي المصلحة والعاقبة
الحميدة ان تكون لارسالة بحسب الاصل ممكنة وواجبة بالعرض .
والمعتزلة جعلوا ارسال الرسل واجبا عقلا لكونه في نطاق الصلاح والاصلاح
وهم يوجبون بعثة الرسل رغم مذهبهم ان الاحكام مدركة بالعقل واجبا
لكونهم يجوزون وقوع العقل في الخطأ ، فالاصح بعث رسول معصوم و
وجود الرسول ادعى للامثال والهداية ما دام المرسل اليهم يتيقنون انه
مبعوث من قبل الله تعالى .

ثم ان النبوة والرسالة ختمت بالرسول عليه السلام ، وبرسالته التي
هي الاسلام ، فهو الذي ارتضاه الله عز وجل ولن يقبل من احد سواه ،
فهو دين العقائد الصحيحة والعبادة السليمة ، وهو شريعة الحياة الانسانية
ومنهج الطبيعة البشرية ، فاحكامه ملائمة لكل عصر ما تقدم العمران ،
وسمت مدارك بني الانسان ، ومكنونات تعاليمه تبلو رويدا رويدا على مر
الزمان ، وتتجلى للباحثين صلاحيتها في كل آن ، انها دائمة القداسة ،
ومعروفة الاصاله وواضحة الدلالة ، يسهل الورود من معينها على
المتعطشين ، ويتيسر بها رفع الحرج الفكري عن الحائرين ، ومع سهولتها
وتيسرها لا تنصاع لتحريفات المنحرفين ولا تخضع لتأويلات المفرضين .
وينشرها وتعميمها خرج العالم من دياجير الجهل الى نور العرفان ، وسمت
البشرية من حضيض الشقاء الى اوج السعادة .

وقد ضرب المثل الأعلى في تفهم تعاليم الاسلام وتطبيقها على مقتضى الشريعة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكذا التابعون وغيرهم ، من أبناء قرون الاسلام الاولى ، وبفضلهم تواصلت امانة التبليغ ، التي تحملوها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودخل الناس على اختلاف أقطارهم وطبائعهم في دين الله الذي هو دين الفطرة ، واحتمت أفواجهم بظلاله عن طوعية ، ووجدوا في حماه السلامة ، والرفاهية ، وباجتهادهم تكسرت أغلال العقول ، وانفكت قيود الافكار فلمس الناس ان الاسلام دين العلم والحكمة ، وبتعزيزهم للدعوة الاسلامية بالحجة الواضحة آمن الناس ان الاسلام دين الحق ، وبانصافهم واو على حساب النفس والاهل ، أجمع المتصفون على ان الاسلام وحده دين العدالة .

لقد استطاع أسلافنا - برد الله ترائهم - أن يكونوا قادة العالم ، ورأسه المفكر والقرءان الكريم وسنة النبي صلى الله عليه وسلم تبوأوا أوج العز والسؤدد ، ونشروا بين سكان البسيطة مثلها العليا ، وفضائلها لغويمة ، فعاشوا في ظليهما سعداء آمنين .